ثقافة وأدب

■ بقلم: موسى صبري ■

لينين وقضايا الفن

« ان كل فنان . كل من يعتبر نفسه فنانا ، له الحق ان يبدع بحرية ، وفقا لمثاله الاعلى . ودون ان يكون تابعا لاي شيء »

ف. ا. لينين

من الحياة اليومية ، استخلص فلاديمير ايليتش لينين ، أفكاره وتجاربه وأعماله ، المصافة في « كراساته الفلسفية » ، وكأي انسان يفكر أراد ان يكتشف ويعرف الحقائق . فوجودها في حياته الواقعية ، ولكونه ماديا ديالكتيكيا فقد تعلم دائما انه لا يمكن الفصل بين الحقائق الكلية التامة المطلقة ، والحقائق النسبية ، وانه لا وجود لاي حد ، لا يمكن عبوره بينهما ، هذا هو منهجه في حياته وفكره وسلوكه ، وهذا هو تطبيقه العملي لمعرفة حقائق الحياة .

وبالنسبة للمحتوى والشكل الذي يعبر عنهما الفن ، فقد كان لينين يراهما في وحدة وثيقة ، كان لا يفهم الشكل بدون محتوى ، وكان يدرك امكانية التضاد بينهما ، بمعنى ان المدرك الشكلي اكثر ثباتا ويتطور ببطء ، بينما المحتوى اقل ثباتا ويتطور بسرعة ، ولهذا ، فقد كان من العسير عليه هضم الفنانين الشكليين الذين يرسمون لوحات لا محتوى لها ، بوضوح اكثر ؛ كان لينين لا يفهم الفن التجريدي لانه شكلي ومجرد من المحتوى .

كان يتساءل : لماذا يجب ان تكون مثلثات الزوايا عوضا عن الانف ، التعبير الفني عن الروح الملهمة . ولماذا يجب ان يحول الطموح الثوري للنشاط الشديد ، جسم الانسان الذي ترتبط فيه الاعضاء بكل واحد متشابك معقد ، الى كيس رخو عديم الشكل ، مركب على قضيبين ، لكل قضيب شمبتان ، ولكل شعبة خمس اسنان ؟

على انه يجب ان لا نحاكم آراء لينين الفنية ، على اساس انه فنان لقد كان مطلعا بمهمة ثورية ، سياسية اقتصادية اجتماعية بالدرجة الاولى ، ولم تكن مهمته فنية .

بعد تصفحه لمجموعة مكرسة لكبار رسامي العالم قال : « اي ميدان آسر هو تاريخ الفن ، لكم من العمل هنا من اجل الماركسي ، امس لم اجد الى النوم سبيلا حتى الصباح ، تصفحت الكتب واحدا بعد آخر ، وتملكتني الكآبة ، لانه لم يتوفر لي ولن يتوفر من أجل التعمق في الفن » .

لم يكن ليتاح اليه ، ان يدون آراءه حول الفن وقضاياه ، في كراساته ، وانما عرفت آراء لينين الفنية من خلال اصدقائه والرفاق المعنيين بالشؤون الفنية ، من امثال اناتولي تشارسكي ، كلارا زيتكين و .. جولوفنسكي ، وانه لعمل عظيم ، ان كل من اتصل بلينين ، حاول ان يسجل آراءه في القضية التي يبحثها معه ، وقد امكن جمع وتدوين اهم الذكريات والآراء التي كان يطرحها في مقالاته مع المتصلين به ، والآراء التي استخلصها لينين حول الفن وقضاياه ، ليست بالضرورة ملزمة للمستقبل ، انما كانت معينة بالحاضر الذي يعيشه وتعيشه الجماهير .

كان يهمه ان نتعلم اولا وان نتعلم ثانيا وان نتعلم ثالثا ايضا ، وان نتعلم دائما . وكان حريصا دائما على الادراك الحي للمسائل التي يعرفها ، وكان حذرا متيقظا في اجراءاته وافكاره . وقد كتب مرة في جريدة البرافدا يقول :

« ينبغي لنا ان نضع عقولنا في رؤوسنا في الوقت اللازم ، ينبغي لنا ان نتشبع بحذر نافع من كل ركض الى امام بدون روية ، ينبغي الامعان في التحقق من الاجراءات التي نتخذها في كل ساعة » .

وهذا يعني ان مراجعة آرائه الفنية ضرورية ، فاذا لم تكن مناسبة ، فهو لا يطلب من احد ان يؤمن بها : اما اذا كانت حية وقادرة على التطوير وتقديم الجديد ، فانه يجب الاخذ بها ، كاية فكرة قادرة على العطاء والتحول .

كان لينين مثلا يشجع الشباب على قراءة بوشكين ، ولم يكن يحب مايكوفسكي بل ان مايكوفسكي كان يصدمه احيانا ، لكن هل يعني ذلك ان لا يرى السوفياتيون الشبان في مايكوفسكي شاعرا مجيدا ؟.. ان لينين لا يقول بذلك ، لقد كان يهمه « استيقاظ القوى الجديدة وعملها من اجل خلق فن جديد ، وثقافة جديدة » فقد قال في حديثه الى كلارا زيتكين : ان الثورة تفكك جميع القوى المقيدة حتى الان ، وتدفعها من الاعماق الى سطح الحياة . وهذا لا يعني اذن رفضه القاطع والمانع ، للافكار الفنية الشابة ، وبينها مصنفات التعبيرية والمستقبلية والتكعيبية التي قال بكل صراحة : « انا لا افهمها ولا اشعر باي فرح بها » .

القضية بالنسبة له ، ليست المدارس الفنية بحد ذاتها ، بل ما تقدمه من مضامين ومفاهيم للناس ، للشعب ، انه ليس ضد القديم او الجديد في الفن ، بل هو ضد المشوه ، ضد الفن الذي يخلق التيه ويزرع الخيبة ، هو يريد لهذه الملايين ان تشارك الفنان الاصول الفنية ، يريد لينين فنا للشعب وليس فنا للافراد : « ان الفن يخص الشعب ، ويجب ان يمد جذوره الى اعمق اعماق الجماهير الكادحة الفقيرة يجب ان يكون مفهوما لهذه الجماهير ومحبوبا منها ، يجب ان يوحد احساس هذه الجماهير وفكرها وارادتها ، وان يرفعها ، يجب ان يوقظ فيها الفنانين ويطورهم » .

عندما يكون بيكاسو مثلا ، مفهوما عند الجماهير ، وعندما يكون بيكاسو قادرا على تحريض الجماهير لفهمه ، فان لينين لا يقف ضد بيكاسو ، الا ان لينين يظل ضد بيكاسو ، ما دام فنه ذاتيا خالصا ، ولا يتفق مع افهام الجماهير ، يريد لينين من بيكاسو الحقيقة الواقعية التي لهمة « حرفية » الصياغة الواقعية .. وانما هي الانعكاس المادي لها ، ان لينين مع التطور ، مع ضرورة ادراك الفلاحين والعمال ان الارض كروية وليست مسطحة ، ان المسالة الحية عنده ، هي تعليم الملايين من ابناء الشعب من اجل ذلك ، فهو مع ارساء الثقافة الماركسية الجديدة واحيائها في اذهان وعقول عامة الشعب، انه مع احياء الحفلات المسرحية والغنائية والموسيقية الجديدة ، وهو مع ارسال المعارض الجوالة والقطارات التنويرية الى جميع انحاء البلاد ، لكنه قبل كل شيء مع تعليم الجماهير من اجل تحطيم الجهاز القديم لكي يمكن [illegible] بالجديد الفعال ، يقول لينين : « لنرشد [illegible] من اجل التحطيم وحسب ؟ ويجيب لينين [illegible] نحطم لكي نشيد شيئا ما افضل .

من اجل ذلك لا يفهم لينين الفن [illegible] متناول الناس العاملين ، وبعيدا عن [illegible] انه يريد خلق مفهوم اشتراكي لوردي الفن [illegible] تراه يشدد على اهمية جوهر الحياة [illegible] الفنان لها .

« لا بد للفنان من ان يلتصق بالحياة [illegible] يتنبه اكثر فاكثر للطريقة التي يبنى فيها [illegible] والفلاحون الجديد من خلال عظيم البؤس [illegible] بد للفنان ان يتعلم من الطبقة العاملة [illegible] ان تضع امام اعيننا دائما الطلائع [illegible] في عيد اول ايار ، نصبت فرقة [illegible] الفنية تمثالا لكارل ماركس، وجاء [illegible] خصيصا ليراه ، دار حوله مرات ، وسجل [illegible] حجمه ومقاييسه ووافق عليه بتحفظ [illegible] لاناتولي لوناتشارسكي : قل للفنان يوجه [illegible] ان ياتي الشعر مشابها ، وان يحمل [illegible] ماركس انطباع كالذي يحصل من صورة [illegible] .. الشبه هنا قليل .

لماذا قال لينين ذلك ؟ لو امعنا النظر [illegible] ان لينين يريد من العمال والفلاحين [illegible] الحقيقة الواقعية بكليتها عن كارل ماركس [illegible] راوا التمثال كما رآه الفنان ، ولم [illegible] يحصلوا على ثقافة فنية ، لقالوا [illegible] ماركس مزيف. ليست القضية هي صياغة [illegible] بشكل جديد او بشكل قديم ، لو [illegible] يعلم ان العمال والفلاحين على درجة [illegible] والثقافة الفنية، لما طلب من اناتولي لوناتشارسكي ابلاغ الفنان ما طلبه منه .

لقد كان يهمه تنمية ذوق الجماهير [illegible] بالتدريج ، ولهذا لم يرفض الاشكال [illegible] للفن ، لانه يرى ان الناس امكنهم استيعاب [illegible] وانها لصيقة بحياتهم ، وكل ما رفضه [illegible] للافراد : « ان الفن يخص الشعب ، ويجب ان لا يتلاءم مع الثورة ، وما دام الملايين [illegible] البورجوازي ، لا يتعارض مع المفاهيم التي [illegible] فان لينين لا يقف موقف المتزمت من [illegible] الفن الجميل ، فن المحتوى ، لذلك فهو [illegible] بالفن الكلاسيكي ، والفن الواقعي ، [illegible] حديثه مع كلارا زيتكين « لماذا ندير [illegible] جميل حقا ونهمله كنقطة بداية لتطور [illegible] وبسبب هذه المفاهيم اختلف مع جماعة [illegible] البروليتارية » التي تدعو الى رفض [illegible] الماضية ، باعتباره فنا اقطاعيا او بورجوازيا [illegible] لقد سخر منهم ، وسماهم « الطيارين [illegible] المتسرعين » ، لانهم كانوا يرون اطلال [illegible] البروليتارية ، دفعة واحدة وكانما من [illegible]

وقد وجه لهم نقدا قاسيا بقوله :

« لن نحصل على الثقافة البروليتارية [illegible] الهواء ، وهي ليست اختراعا لخبراء [illegible] البروليتارية ، ان الثقافة البروليتارية [illegible] تكون التطور المنطقي لرصيد المعرفة [illegible] والتي جمعت تحت نير الراسمالية » .

على ان ذلك ، لا يعني ان لينين كان [illegible] في فهم الفن ، بل كان يرى اهمية خلق [illegible] الضرورية والموضوعية لكي يتمكن الناس [illegible]

اشتراكية جديدة ، ولكي يقبل الناس ، الجديد في الفن والثقافة الثوريين الاشتراكيين .

ومن هنا فقد كان يفهم ان الفن ليس اطلاقا متوائيا لهوايه من الهوايات ، بل هو يتجسد في الالتزام الكامل بفهم عملي لاصول الفن ، وكل مثقف وكل فنان ، مطالب بالالتزام الفني ، والفنان الاشتراكي مطالب بالالتزام الفني من اجل النهوض بمستوى الطبقة العاملة ، ومن اجل دحض الرواسب الاقطاعية والراسمالية والبورجوازية .

ان لينين يريد من الفنان ان يعيش الحياة بعمق ، وان يستخلص منها اعمق واهم الظواهر، انه فعله الشكلية والميكانيكية في الفن ، وهو مع استخفاف الجماليات الدينامية ذات الروح والمعنى والمحتوى ، ولذلك فهو مع حرية الفنان، حيث يصرح بذلك لكلارا زيتكين قائلا :

« ان كل فنان وكل من يعتبر نفسه فنانا له حق الابداع الحر ، وله ان يتبع مثله الاعلى ، دون ان يكون تابعا لاي شيء » .

لكنه يضيف : « نحن شيوعيون ، وينبغي علينا ان نقود المجرى بمناهجية وتكون نتائجه » اي ان لينين مع حرية الفنان ، ولكنه يقف موقفا حازما ومعارضا للتسيب والفوضى . ان ذلك يشوش عامة الشعب الذين يحتاجون لرؤية فنية ثورية اشتراكية واضحة ، وهو يرى ان على الدولة الاشتراكية حماية الفنانين وتحريرهم من عبودية الظروف الخانقة ، ومن استغلال الملايين .

« في المجتمع القائم على الملكية ينتج الفنان للسوق ، انه يحتاج الى عملاء ، ان ثورتنا حررت الفنانين من نير الظروف ، انها حولت الدولة الى مدافعة عن الفنانين » .

فالانتاج الفني ، ليس من أجل بضعة اشخاص قادرين على دفع اسعار أعلى ، حارمين الجماهير من التمتع بالاثر الفني ، أن ما يهم الفنان هو ان يتفهم عمله الفني أوسع قطاع بين الجماهير ، لذلك فان لينين على حق ، عندما يقف مطالبا بالفن للجماهير ، ومؤكدا على ضرورة استخلاصه من الواقع . والواقع الذي يفهمه لينين ليس ساكنا ، ولا رسوميا ، ان في هذا الواقع وحدة صراع الاضداد ، لهذا فهو يفهم انه « يجب ان ينمو الفن الجديد فعلا ، الفن الشيوعي العظيم الذي يخلق شكلا مناسبا لمضمونه ، وانه ينبغي على الشبيبة الشيوعية ، ان تسدد في سنوات ، في عقود من السنين ، الدين الثقافي المتراكم من قرون وقرون .

يريد لينين أن تتبع الفنون والاداب والثقافات من الجماهير ، لكي تجري في عروقهم ، وتكون قادرة على تطويرهم ، وعلى تحريك الثورة ودفعها الى تخطي حواجزها ، واذا لم تكن كذلك فهي عاجزة عن « النمو » في الناس ، وعاجزة بالتالي عن تطويرهم ، لكن الثورة هي « تحريك كل قطاعات الشعب » ، ان حركتها تنمو وتتفاعل في صدورهم ، بالقدرة التي تنمو وتتفاعل دماؤهم ، ولا تستطيع الثورة ، أن تتحرك وتنمو وتتفاعل « اذا لم يقترب الفن من الشعب واذا لم يقترب الشعب من الفن » هذا ما يقوله المعلم العظيم لينين .

● نصعد كل جبالك باسم الضوء

« غن بكاء مي صايغ في معرض الكرامة »

لا اقول الدموع
فانا فاضح الملح فيها
وانا اعرف الملح يمحق كل الزروع
وانا للزروع ، واختي معي تفتديها
ما الذي لاح في وجه اختي اذن ؟

يتنبه جرحك يا عمان
يستيقظ جرحك في الطرقات ،
ويخرج من بين الجدران
يستيقظ ؟

عفوك ، عند العابر نام الجرح
وعند الباعة كان مناما ،
والمتفرج يحلم ،
كنا .. ماذا كان ؟

لا اقول الدموع
فانا ممسك بالوجوه التي ترتديها
وانا كاشف ملمس الموت فيها
(مرة سبكت فضة فاستباحت يسوع)

ما الذي لاح في وجه اختي اذن ؟
يتكلم جرحك يا عمان
لكن من يصغي والاذان
رهنت عند النخاسين

وفلسطين
درس محذوف من جغرافية البياعين
ليدون ثانية في تاريخ الاحزان
لكنا نحن ... وماذا كان ؟
لا اقول الدموع

فانا ضابط سمها وهو يعزي ذويها
كنت لما اجوع
ارتديها
يا زمان الطفولة ، ما كنت طفلا ، وكان الجموع
يقذفون المواساة خبزا تخمر سما وتيها
ما الذي لاح في وجه اختي اذن ؟
يتفتح جرحك يا عمان
يتكشف عن ليل ودخان
لكن الليل مشوب بالفقراء ؛ وللفقراء سراج
فنصعد كل جبالك باسم الضوء ،
ولن نتعثر بالادراج
وسندرس في تاريخ الان
جغرافية الانسان
لا اقول الدموع

فانا فرح مشهر في ضمير الجموع
– ما الذي لاح في وجه اختي اذن
– الذي لاح .. كان الوطن
وانا انغرس فيه الرجوع

أحمد دحبور
١٩٧١/٢/٢٢
صيدا

قصة بقلم: نواف أبو الهيجاء

رباعية الاتجاهات

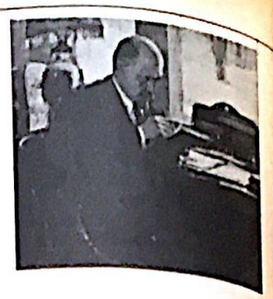

١ – الجنوب

الحقيبة امامه ، الطائرة تصل بعد لحظات ، الهواء ساخن والغبار موجات رمادية ناعمة تهب من بعيد .. والغبار شاسعة .

بلاد الله واسعة ، وحيث تنقطع سبل العيش فلا بد له من البحث عن اللقمة .. الجري وراءها ، كانت الاحمال تثقل نفي حمارهم اليتيم تنطلق تلفه عربة ركبكه :

– اذهبوا الى عبدالله ..

حين سال امه عن عبدالله ، قالت : « هو الملك !! » في بلاد الملك كانت الارض فسيفة . تعلم حتى اكلت الحروف من حبتي فيتيه . سهر الليالي الطويلة امام موقد الفحم . وكان كلما ذهب الى « منشية » طولكرم يموت ، تغرم الغرباء بفنون . وكان الغطار يبطيء من مسيره عن عمد ، عندما يدخل منطقة الاسلاك الشائكة . وكان السؤال الحائر الذي طالما ارقه هو :

– كيف لا استطيع تجاوز هذه الاسلاك ؟ انها تبعد عني عدة امتار ..

لكن الجوع ارقه اكثر .

بلاد الله واسعة، اكثر من سعة الارض الممدودة امامه حتى تلامس قوس السماء في مكان بعيد ، في الصحارى الجنوبية تخرج الارض الذهب ، والناس هناك يلعبون بالذهب . اذهب هناك وعش لتعش ، نريد ان ناكل ، امك واسوك واخوتك الصغار يعتمدون عليك . الخضر لا تطعم عائلة تريد ان تعيش وتحيا .

بلاد الله واسعة ، البحر واسع ، والصحراء أوسع ، وهو ينتزه في الصباح ، يفتقد طيور النورس تلثم سطح الماء المسن . وفي المساء كان يحب ان يودع الشمس وهي تغوص في بحور الرمال . الصيف في الاوج ، ها هي ذي بلاد الدشداشة ، والكوفية ، والعقال .. بلاد السيارات الفارهة والصحارى الواسعة .. انها بلاد الله تمور بخلق الله . الشمس تلفح الوجوه والرمال تذر في العيون والوجوه الحمراء ذات اللكنة الهجينة واللغة الغريبة تنحني امام الدشداشات الواسعة مثل العربات الآتية من وراء هذه البحار . وفي المكتب يجلس . تصله الرسالة ..

« والدي الغالي . منذ سنه لم نرك ، الا تستطيع الحصول على اجازة ؟ اننا في شوق عارم لرؤيتك . شقيقتك واخوك و ... » .

والشوق سياط من نار ، حفنات من الرمل الذي تكمن فيه الشمس طوال النهار . القى الورقة من بين يديه قبل ان يتم قراءة الخطاب وقبل ان يستوي واقفا راى بعينيه من خلف الزجاج « المنشية » باشجار الحور تسورها والصفصاف بسندها . راى القطار الاسود يتقدم يقولون إنه يذهب من يافا الى حيفا وبالعكس . وكانت طولكرم عروسا اغالوا عريسها ليلة الزفاف . ان في « نور شمس » تقف الان في الطابور الطويل تحمل تنكة لتعبئتها ماء . ابوه يجلس القرفصاء يحتسي الشاي ويلف الدخان ، يحلم برؤية ابنه . واخته الصغيرة تسال اخاه الاوسط عنه فيقول لها : هو في بلاد الله الواسعة .

وما ان خرج من الغرفة حتى واجهه لافتة المدير ..

طرق الباب :

– ادخل ،

دخل ، لم يرفع المدير راسه عن الطاولة . التعاس يلفه هنا . لم يكن ثمة شيء غير راسه العاري وكوفيته ملقاة باهمال الى جانبه . كانت الدشداشة بيضاء شفافة منشاه .

– اريد اجازة ..

ارتفع الراس ، والنقب الاعين .

– ما في اجازات . نحن نحتاج اليك ..

– واهلي ؟

– اذا كنت تحب اهلك فلماذا تركتهم ؟

آه .. ويجرف السيل العارم كل شيء في طريقه ، الهدير من بعيد ، والشوق العملاق يتوسط الارض والسماء . هدير .. الطائرة التي ستقله الى ارض الوطن المعزق اسة .. تحمله الى الاحباب في طولكرم .

٢ – الشمال

صفيع موحل في الخارج .. الغرفة مخضبة بلون الدم .. تعرى الرجلان .. الظلال في الزوايا بنفسجية . مناه تتسلقان الجسد المنحني امامه ليتخلص من ورقة التوت الاخيرة . الظهر العاري يرتعش . الشعر يتسدل ، يحاول اخفاء الشعر . الظلال تتلوى كما تفعل الستارة، تتلوى النظرات لتدخل من بين الذراعين وتصلب على قارعة البرة الصغيرة ، ثم تلج الازمنة جميعها . آه ، كيف وصلت الى هنا ؟ كتة هي الظلال هذه الايام باشجار الصنوبر ، والعري في الصقيع ضالة منشودة للحائرين في البلاد البعيدة ذات المطر الثلجي . حين التف الاعين زاده رعب خفي ، تحركه الكهرباء سرى في اطرافه . لم يكن قد تخلص من اي قطعة يرتديها . لم يكن عاريا كما هي الان امامه . لم يكن ليبصر في المراه الا ظهرها العاري كالجليد المدمى في صباح لا غيوم في سمائه . راى نفسه وهو يرتمي في حضن مرج واسع سعة الدنيا كلها . ولكنه ضاع .. ضمه المرج الواسع ، وخنقت صوته العنان المحترثان . وحيث تقدمت منه والفحيح الساخن يسبقها رشقها بنظرة طويلة . كان التحدي باكله ، نفرس في قلبه خناجر الجليد . وكانت الظلال بنفسجية .. ايه .. يا جبل الكرمل ، في الصباح تلفك الظلال البنفسجية ، وعندما يحين المساء ، يغطيك الرداء البنفسجي قبل جناح الليل .. العينان زرقاوان .. شفق البحر الابيض نطل على حيفا ، صدرها .. يا فم الكرمل ؟

– لماذا انت جامد في مكانك ، انتظر مني ان انزع عنك ملابسك ؟..

الصمت في الصقيع كالموت في خريف العمر .. كما هو صمت الكرمل في الليالي الصيفية لا ريح ، لا مطر ، لا رعد ، لا بروق .. انتبه الى يده تمتد لتقضيء النور الاصفر كالموت .. مثل الشمس وهي تنحني لتغطس في البحر ، مخلفة مركبين ضخمين يواجه احدهما الاخر ، ثم ، وفجاة ، يلتمع الليل ليهدر البحر بما يكنزه ..

– ارتدي ثيابك ..

– ما الخبر ؟ الست جميلة ؟..

– انك الكرمل بذاته .. الكرمل البكر الذي اغتصبه غريب ؟..

– ماذا تقول ؟

– كيف استطيع ان افهمك ما اريد ؟ على كل حال .. ساعود .

– الى اين ؟

– اليك ..

٣ – الغرب

رائحة الارض .. عبير البرتقال ، ورنين اجراس بعيدة تقرع في داخله كما تفعل في ابراج الكنائس النائية .. الحلم البطيء المتيقظ من همسة محمومة تقطع الفراغ الرهيب في الجبل . الموت يكمن في المغاور القديمة في كهوف العتمة . لجا اليها ابوه قبل ثلاثين او اكثر من السنين . احتمى بها اللصوص وقطاع الطرق والهاربون من خدمة السلطان . وها هي الليلة لا تحميه .. ولا تحمي ايا من رفاقه .. الثقل فوق كاهله يرهقه ، المسورة السوداء ، الجعب – المحشوة بالرصاص ، والماء .. والقنابل . الثقل يخف حين يطرب من فناء الارض . عاش هنا ثمانية عشر عاما ، يعرف اين ينمو البلان ، واين تفوح روائح الصعتر ، ومن اين يمكن له ان يقطع عود مرمية ، كيف يتفقع الشومر ، ويعرف من اين ينحدر ليصل الى المستعمرات الجديده . سطح ، معصوب العينين ، اذا انطلق عبر النهر الحزين ، ان يسير دون مشقه حتى يصل « جرار » .. حيث البساتين واشجار الصبار. اه .. الواح الصبار الخضراء تنتظر الشمس لتفر الاكواز ، تحمر من خفر ، ويهب الريح العاصف فتغمض العيون خوفا من الاشواك الصغيره . الصبار جميل وطيب لولا انك سمعاني من شوكه حين تعشره ، قيل ان تطعم منه . واستشعر في سره علاقا بسالته :

– كيف بعش الاغراب هنا ؟..

طحنه في تلك اللحظه صوت صفير الرياح . شد اذنيه ، كان وقع اقدام رفاقه اقوى من الصفير ، وهو كان يظن ان الرياح اقوى من خبطات الاقدام على الارض الحروبة .. فزع ، تطلع الى السماء . الليل والنجوم ووجه سري بطل كانه القمر .. يسامره .. وعبر النهر الى الضفة الاخرى . كانت السماء تمطر ، وكان الناس يتجمهرون، يصرخون ، واصوات الرصاص تنطلق مع المطر لتخرس اصواتهم . لكن الاصوات كانت مثل خبطات الاقدام فوق الارض فرسي النهر .

– يا رفاق .. اقربنا من الهدف ..

وحملق في وجهها المدور الكبير .. ضحك في سره وربت على بطنها :

– سيكون طفلا شيطانا كابيه ..

٤ – الشرق

بكوبه الشوق ، العاقة عينين يلملهما الظما نحو شاطيء يبتلع الامواج . يعرف الحنين من اين يتحرك . اسراب الموت تلطما له في العتمة، تحت اشعة الشمس ، في زوايا المدينة المنهكة ، في ازقة القرى المظلمة ، خلف جذوع الشجر ، في المنعطفات . لا رفيق الا البارودة .. البيادر ، والاغوار ، والصمت والجثث المطوقة بحلقات النار في كل مكان . اما في البيوت ذات السقوف الواطئة ، فكان كل شيء الا الموت . يسري بحدله عن استفاقة الظامىء الى رؤية النور . الكوة تطل على دبابة .. كان قبل قليل ، غربي النهر ، نسرا جريح النظر ، له جناحان قويان . لم يستطع احد ان يناله .

الان هو في الغرفة ، امام يسرى ، يسرى تزيح الستارة السنارة فتضرب ماسورة المدفع عينيها السوداوين . تعود قلقة ، تفرك راحتيها ببعضهما البعض .

– ما العمل ؟!

– ساخرج لهم يا يسرى .

– انا ماذا افعل ؟

– اذهبي الى احد الجوامع .

– لست راغبة في الصلاة .

– ومن قال لك ذلك ؟!

– اذن .. ماذا افعل في الجامع ؟

– اعتصمي مع بقية النساء والاطفال .

– وانت ؟..

– سأقاتلهم .

– وان مت ؟!

– لا عليك .. انتبهي للطفل الذي يعيش في احشائك . هذا كل شيء ..

امتدت يدها بحركة لاشعورية تتحسس بطنها المنتفخ .. يتلعبط السوق في الفؤادين ، ترميه الاعين الاربع نارا بخطوط مبينة ، تشده اليها ، تجذبها نحوه .. العناق ، ابعاد الزمن الذاتية ، تصهرها حرارة الغوهات المغفرة بتراب الارض شرقي النهر ..